

ابن رشيق

- من محاضرة الاستاذ عبد العزيز الراجحي -

﴿ ابن رشيق بمحاضرة المعز ﴾

المعز وان لم نعتبر له على شعر كما نقلنا عن ابن خلكان ^(١) إلا أنه كان مع ذلك ناقدا بصيرا ومصفعا نحريرا - والعجب من صاحب المقالة في دائرة المعارف الإسلامية بالانكليزية حيث زعم ان الذي كان ابن رشيق من شعراء حضرته هو المعز الفاطمي - فكأنه لم يفرق بين المؤرخين ولم يعرف الهر من البر - وهذا يتضح من انتقاده على يتي ابن رشيق الحائتين وقد مرّا - ثم ان نوبته المارة أثبتت لديه أن الرجل كائن له شأنٌ ومنتشر له ذكرٌ ولما أنشده لاميته اختصه لنفسه وجلبه الى ديوانه وحفّه بجوائز السنية ورّفقه بصلاته الخطيرة على ما مر ، وما ساعده الدولة والإقبال لم يُخَوِّج شاعره إلى غيره . ثم إن الدهر قلب له ظهر المجنّ والايام كما علمت غُدْرٌ ولدهر دُولٌ وسيأتيك بيانه .. قال ابن شرف ^(٢) في أبكار الأفكار له « استدعاني المعز بن باديس يوما واستدعي ابا علي الحسن بن رشيق الأزدى وكنا شاعرَي حضرته وملازمَي ديوانه فقال أحبُّ أن تصنعا بين يديّ قطعتين في صفة الموز على قافية التين فصنعا حالا من غير أن يقف أحدهما على ما صنعه الآخر (راجع قطعتيهما في التين من شعرهما) فأمرنا للوقت أن نصنع فيه على حرف الذال فعملنا ولم يُر أحدنا صاحبه ما عمل (وراجع قطعتيهما في الذال من شعرهما) قال ابن شرف فانت ترى هذا الاتفاق لما كانت القافية واحدة والقصد واحدا. ولقد قال من حضر ذلك اليوم ما ندرى ممّ نتعجب أمن سرعة البديهة أم من غرابة القافية

(١) ولفظه (٢ : ١٠٥) له شعر قليل لم أقف منه على شيء (٢) البدائع ١ : ٢٢٦

أم من حسن الاتفاق « اه فهذا يدل على ما منح شاعريه من الاختصاص
وحضهما على المساجلة في قرض الشعر ومثله ما نقله ابن بسام ^(١) » أن ابن رشيق
دخل عليه يوما وعنده جماعة من الأدباء وفي يده أترجة ذات أصابع كأنها واسطة
ذهب أو جذوة لهب ، فأمرهم المز أن يعلوا فيها شيئاً فعمل ابن رشيق :

أترجة سبطة الأطراف ناعمة نلتني النفوس بمحظ غير مبخوس
كأنما بسطت كعماً خلقتها تدعو بطول بقاء لابن باديس

والبيتان كما نرى آية في الحسن وهما على البديهة فكيف لو تروى فيها .
ثم قال ابن بسام فاستحسن ذلك منه وفضله على من حضر من الجماعة الأدباء
(كذا) . ومثله ما زوى أنه زجع من بعض غزواته منصوراً فتقدم ابن رشيق
وأثدته :

وكأنما رايته مشهورة يوم اقتحامه
أيدٍ تشير الى المد وبسيله أو باتهمزاه

وكذا قوله ^(٢) وقد غلب المز عن حضرته وكان العيد ما طراً :

تجهّم العيد وانهلكت مدامعه وكنيت أعهد منه البشر والضحكا
كأنما جاء يطوى الارض من بعد شوقاً اليك فلما لم يجدك بكى

ولكن لما انتقل المز من سيل أعراب مصر الى المهديّة وتبعه صاحبنا طاش
فكره وقال رأيه فكان يمتعض من أدنى قلنة ويحبّه على أحقر بادرة وبسوء
الظن بصديقه الوفى وصاحبه الحفى فارتحل الى صفّية وهو كاره مع انها لم تكن
أحسن حالا من إفريقية كما سيربك

(١) ابن خلكان ٢ : ١٠٥ والبدائع ٢ : ٣٩ وجنات الروايتين

(٢) المامد ٢ : ١٦ وخزانة الحموى ٢١٤

هو في الخليط .

كان على أعلى درجة من الخلق كما مرّ في حكاية رحلة الصقليّ إليه ويذكر لنا في شعره أنه لا يستحلّ الجفاء بالاخوان ولو على المقارضة

من جفائي فأنني غير جافٍ صِلّة أو قطيعة في عفاف

ويعظ أصدقاءه بأن قطوبى ليس عن سوء الطويّة أو دُخل فاسد فلا

يفرنكم ذلك

أحب أخى وإن أعرضت عنه وقلّ على مسامحه كأنى

الثلاثة الايات . وذكر في الأنموذج (١) حكاية تدلّ على كرم ومروءة

وسماحة نفس ودمانة تُخلق في ترجمة الشاعر أبي الحسن محمد الصرائرى قال

« رأيت في سوق ابن هشام بالقيروان ماشيا في فروأحر عتيق مما يوارى ركبتيه

وقلنسوة قديمة وهو يشتري لحما . فتواريتُ عنه إكباراً له وحياء من رؤيته

في تلك الحال وأتبعته إلى بيته فلما عرفته ذهبت فأنتبهت بعينية كانت لى فيها نياپ

لا جعلها عليه فاذا هو يُصلّح القدر وعليه نياپ نفيسة وعمّة شريفة وفي وسطه احرام

ديبقي مرتفع فسلمت عليه متمجّبا منه فأنكر حالى فقال مالك فقصصتُ عليه القصة

من أولها إلى آخرها فأننى بخير وقال قابلت العامة العمياء بما يشبهها » . وقد

مرّ في ذكر شيوخه أنه يتأدّب معهم دائما ويرزى أبواب كتابه بنقل أقوالهم

بأسانهم وإن احتاج أن ينتقد على قول أحد منهم لا يخلّ برعاية الادب . ولا

يُنِيّ يثنى على ولّى نعمه ابن أبي الرجال الآخذُ بِمُجِيزَتِهِ من الوهاد الى الجبال كأنه

يرى عنقه خاضعة لأعباء إناما وكاهله ينوء بأحمال إكرامه . والاسف أنى مع

طول التنقيب لم أعثر على موادّ تاريخية فهاك ما وجدته من الباب في شعره

مم ذكر القوافي فقط : يلقننا القناعة وينهانا عن الجشع (التَّعَبِ) . يحذرنا عن مخالطة العوام (الاكفاء والصّوت) بخوفنا بالموت ويوقن بالبعث والنشور وتراه تُرْعَدُ فرائضه من ذكر يوم الدين والوقوف بين يدي رب العالمين (القضاء وظلّل) . يحوم حول الحقيقة والجوعر ولا يحفل بالظاهر وليس من أهل الجمجمة والدندنة أو الفخفخة والطنطنة (معتمد) . يشكو البنا جوده وبذله كما قيل :

انا اذا اجتمعت يوماً دراھمنا ظلّت الى طُرق المعروف تسبق
لا يآلف الدرهم المضروب صرّتنا لكن يمرّ عليها وهو منطلق
(جودی) - يابن جانباً عند ذكر الماضين . قال في العمدة ^(١) وقد
ذكر عدة ابتداءاتٍ للشعراء « وقد قلت أنا وإن لم أدخل في جملة من تقدم
ولا بلغت خطته »

﴿ سعة اطلاعه وإصابته الغرض وغائر نقده ﴾

هو من سعة الاطلاع وجمع المواد اللازمة والوقوف على كتب الشعر
والشعراء بمكان لا يُجَارَى فيه ، بل روى الدواوين الأدبية برواياتها المختلفة ،
قال ^(٢) وذكر بيتاً لضباب بن سُبَيْع بن عوف الخطلي : هكذا روايته بالخاء
غير معجمة وهو الصحيح وبعضهم يرويه غنة بالغين معجمة - وقال ^(٣) في بيتي
عمرو بن كلثوم صددت السكّاس البيت وماشر البيت : انه اختلسهما وهما لعمرو
ذی الطّوق (ابن أخت جذيمة الأبرش) فاستلحقها عمرو بن كلثوم في قصيدته
وكان [أبو] عمرو بن الملاء وغيره لا يرون ذلك عيباً له أقول عزّوهما إلى عمرو
ذوی الطّوق لم يُنبّه عليه ابن كيسان ولا التبريزي ولا الزوزني نعم ذكره أبو الملاء
في رسالة الفغران ^(٤) والبغدادي ^(٥) في الخزائنة في خبر طويل - وهما في كتاب

النقائض^(١) معزوبين لابن كلثوم في خبر مختلف عما عندهما ، والله أعلم بصاحبهما
إلا أنا ذكرناه لغرابته وأن صاحبنا لم يغفل عنه مع شدوذه . ويندكر في المدة
من الكتب المأخوذ عنها مالا تكاد تقضي منه المعجب ونسأله « أنى لك هذا »
ولو كان حياً يسمع لأجابتنا « هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير
حساب » وحسبك شاهداً لما نحن بصدده أن كتاب جبهة أشعار العرب مع
عدم شيوع نسخته وعدم غثور المتقدمين عليه نرى مكتبة صاحبنا مزهوة به حيث
يقول^(٢) « وقال محمد بن أبي الخطاب في كتابه الموسوم بجبهة أشعار العرب » .
ونرى أن تعاصر العلماء ربما يمنع بعضهم عن ذكر اسم صاحبه بخير إلا أن صاحبنا
لا يستهجنه قال^(٣) « وزعم أبو أسامة فيما رأيته بخطه وقد عاصرتة وكان علامة
بالغة » وأنموذجه في شعراء عصره ليس إلا . ونراه يأنى^(٤) بأشعار المعري مع
المعاصرة فإن المعري توفي سنة ٤٤٩ هـ فقد كرر بيتين له من غير صنعة اللزوم في عمدته
هذا ما كان من أمر الرواية وأما الدراية فإنه من دقة النظر وغوص
الفكر وإصابة المرمى بمحل رفيع . لا يترك قولاً ثقله إلا ويؤيده أو يزيقه إن
كان يحتاج إلى بحث . ويدور مع الحق حيناً دار قتره انتقد على أسانئده وعلى
الأصمعي^(٥) والصاحب ابن عباد^(٦) والقاضي الجرجاني^(٧) صاحب الوساطة .
وهو بنفسه يعترف في محل آخر^(٨) بفضل القاضي حيث يقول « وهو أصح مذهباً
وأكثر تحقّقاً من كثير ممن نظر في هذا الشأن » ونراه^(٩) يوصي الشعراء وصية
طويلة قال فيها بعد ذكر ما أحدثه المتأخرون من المعاني المبكرة والإبداعات
الغريبة وإبداء فضلهم على من تقدّمهم « هذا على أنى ذممت إلى المحدّثين أنفسهم
في أما كن من هذا الكتاب وكشفت لهم عوارهم ونعتيت لهم أشعارهم ليس هذا

(١) ص ٨٨٦ (٢) المدة ١ : ١٦١ (٣) ٢ : ١٥٤ (٤) ٢ : ٨٢
(٥) ٢ : ١٦٣ (٦) ٢ : ١٩٣ (٧) ٢ : ١٩٥ (٨) ٢ : ٢١٥ (٩) ٢ : ١٨٥

جبالاً بالحق ولا ميلاً إلى ثنيات الطُّرق ولكن غصّاً من الجاهل المتعاطي والمتحامل الجاني الذي اذا أعطى حقّه تعاطى فوقه وادّعى على الناس الحسد وقال أنا ولا أحدٌ وإلى كم أعيش لكم وأى علم بين جنبي لو وجدت له مستودعاً ، فاذا عورض في شعره بسؤال عن معنى فاسد أو متهم أو طولب بمجبة في لحنة أو شاذ أو نوظر في كلمة من ألفاظ العرب مصحفة أو نادرة قال هكذا أعرف وكأنما أعطى جوامع الكلام ، حاشَ الله ! وأستغفر الله ، بل هو العمى الأكبر والموت الأصغر » الى آخر ما نرى به عليهم ونَدَد من تعجرفهم وسُئْلِم بشيء منه في الآتي وبحسبك في لطافة فكره وغورِ سبزه ما قال ^(١) بعد أن نقل اعتراض صاحب على بيت المتنبي في مرنية والدة سيف الدولة :

رواق العزّ فوقك مسبطٌ ومُلكٌ على ابنك في كمال

ان لفظة الاسبطار في مرأى النساء من الخذلان الصفيق الرقيق ثم قال وأنا أقول ان أشد ما هجن هذه اللفظة وجعلها مقام قصيدة هجاء أنه قرنها بفوقك فجاء عملاً تاماً لم يبق فيه الاضاء اه قال العاجز نعم كذا هو «فوقك» في الوساطة ^(٢) وشرح الواحدى ^(٣) إلا أن في شرح العكبرى ^(٤) موضعه حولك . وفي الشرحين قول أبى بكر الشرائى تلميذ المتنبي أنه غير مسبطراً وجعل مكانه مستطيلاً وان لم يكن بأمثل من صاحبه إلا أن اعتراض ابن رشيّق ارتفع بالمرّة واعتراض صاحب شيئاً قليلاً

وتقل في باب أغاليط الشعراء والرواة من العمدة ^(٥) عن الأصمعي قال : قرأت على أبى معرّز خَلَف بن حَيَّان الأحمر شعر جرير فلما بلغت الى قوله :
 ليلٍ كأيّهم الجبارى محببٍ إلى هواه غالبٍ لى باطله
 رزقناه الصيد الغزير ولم نكن كمن نبلة محرومة وجبائله

فِيَاكَ يَوْمًا خَيْرُهُ قَبْلَ شَرِّهِ تَغَيَّبَ وَاشْيَهُ وَأَقْصَرَ عَازِلَهُ
 قَالَ خَلْفَ وَبِحَ مَا يَنْفَعُهُ خَيْرٌ يَزُولُ إِلَى شَرِّ فَقُلْتُ هَكَذَا أَقْرَأُهُ عَلَى أَبِي عَمْرٍو
 ابْنُ الْعَلَاءِ قَالَ صَدَقْتَ وَكَذَا قَالَ جَرِيرٌ وَكَانَ قَلِيلُ التَّنْفِيعِ لِأَلْفَاظِهِ وَمَا كَانَ
 أَبُو عَمْرٍو لِيُقَرِّكَ إِلَّا كَمَا سَمِعَ . قُلْتُ : فَكَيْفَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ ؟ قَالَ : لِأَجُودِ
 أَنْ يَكُونَ خَيْرُهُ دُونَ شَرِّهِ فَارَوْهُ كَذَلِكَ وَقَدْ كَانَتْ الرِّوَاةُ قَدِيمًا تُصْلِحُ أَسْمَارَ
 الْإِوَاتِلِ . فَقُلْتُ وَاللَّهِ لَا أُرْوِيهِ إِلَّا كَذِبًا - نِمَّ قُلْتُ : قُلْتُ : أَنَا أَنَا هَذَا الْإِصْلَاحُ
 فَلْيَحِ الظَّاهِرُ غَيْرَ أَنَّهُ خِلَافُ الظَّاهِرِ وَذَلِكَ أَنَّ الشَّاعِرَ أَرَادَ أَنَّهُ كَانَ لَيْلَهُ فِي وَصَالٍ
 سَمِ فَارَقَ حَبِيبَهُ نَهَارًا وَذَلِكَ هُوَ الشَّرُّ الَّذِي ذَكَرَ وَالرَّوَايَةُ جَمَعَهُ لَمْ يَفَارِقْ فَمَيَّرَ
 عَلَيْهِ الْمَعْنَى إِلَّا أَنْ تَكُونَ الرِّوَايَةُ وَيَوْمَ كَابِهَامِ الْحَبَارِيِّ - فَخَيَّتُنْدَ - عَلَى أَنْ دُونَ
 تَحْتَمِلُ مَا قَصِدَ وَتَحْتَمِلُ مَعْنَى قَبْلَ وَتَكُونُ أَيْضًا بِمَعْنَى بَعْدَ . وَلَا يَسْلَمُ قَوْلًا مَا لَمْ
 يَتَرَجَّحْ عِنْدَهُ بِدَلِيلٍ وَلَا يَتَلَكَّأَ عَنْ تَبْذِهِ وَلَا يَحْمِلُهُ تَقْدِيمُ قَاتِلِهِ فِي الْعَصْرِ عَلَى
 التَّقْلِيدِ الْأَعْيَ قَالَ ^(١) فِي بَابِ رُخْصِ الشُّعْرِ « وَيَجُوزُ لَهُ (لِلشَّاعِرِ) التَّقْدِيمُ
 وَالتَّأْخِيرُ كَمَا قَالَ الْمُجَبِّرُ السَّلُولِيُّ :

وَمَا ذَاكَ إِنْ كَانَ ابْنُ عَمَى وَلَا أُخَى وَلَكِنْ مَتَى مَا أَمْلِكِ الضَّرَّ أَنْفَعُ
 بَرَفِ الْعَيْنِ أَرَادَ وَلَكِنْ أَنْفَعُ مَتَى مَا أَمْلِكِ الضَّرَّ . وَلَا أَدْرِي مَا الْفَرْقُ بَيْنَ
 هَذَا وَبَيْنَ :

[يَا أَقْرَعَ بْنَ حَابِسٍ يَا أَقْرَعَ إِنَّكَ] إِنْ يُصْرَعُ أَخُوكَ تُصْرَعُ
 حَيْثُ فَرَّقُوا بَيْنَهُمَا غَيْرَ أَنَّا لَا نَسْلِمُ لَهُمْ كَمَا سَلِمَ مِنْهُ هُوَ أَنْتَبَ مِنْهَا حَسًّا وَأَذَكِي
 خَاطِرًا « أَهْ أَقُولُ سَيَبُوه ^(٢) يَجْعَلُ تُصْرَعُ خَيْرٌ إِنْ وَجَوَابُ ابْنِ يَصْرَعُ مَحْذُوفٌ
 عِنْدَهُ . وَالْمَبْرَدُ يَجْعَلُ قَاءَ الْجَوَابِ مَحْذُوفًا وَالْأَصْلُ عِنْدَهُ فَتَصْرَعُ . وَهَذَا شَأْنُ
 الْحَقِيقِينَ أَنْ يَحْضُرُوا حَوْلَ الدَّلِيلِ كَمَا أَنْكَرَ ابْنُ قَتَيْبَةَ عَلَى سَيَبُوه وَهُوَ هُوَ عِدَّةُ

(١) ٢ : ٢١٣ (٢) انظر الخزانة ٣ : ٣٩٦ والسبيل ١ : ١٦٠

تصحيفات له فى الروايات وبناء مسائل من النحو عليها فى مقدمة طبقات الشعراء
(لیدن ص ٣٢)

وأرى أن أقل هنا آراء عدة من الشعراء فى شعر محمد بن هانىء المغربى قال
ابن خلكان ^(١) فى ترجمته :

ويقال ان أبا العلاء المبرى كان اذا سمع شعر ابن هانىء يقول ما أشبهه إلا
برحى قطن قرونا لاجل القمعة التى فى ألفاظه ويزعم أنه لاطائل تحت تلك
الألفاظ . ولعمري ما أنصفه فى هذا المقال وما حمله على هذا الا فرط تعصبه
وقال ابن شرف ^(٢) فى مقامة الانتقاد :

وأما ابن هانىء محمد الأندلسى ولادة ، القيروانى وقادة وإفاداة ،
فرعدي الكلام ، سردي النظام . متين المباني ، غير مكين الماني . يجنو
بمطنها عن الأوهام ، حتى تكون كمنطة النظام . ألا أنه اذا ظهرت معانيه ، فى
جزالة مبانيه . رمى عن منجيق ، يؤثر فى النيق . وله غزل قمرى ، لا عذرى .
لا يقنع فيه بالطيف ، ولا يشفع فيه بغير السيف . اهـ

وهالك ما ارتأى فيه صاحبنا ^(٣) بعد أن ذكر أن للشعراء مذاهب مختلفة
فى إنباط اللفظ على المعنى أو عكسه :

وفرق أصحاب جلبة وقمعة بلا طائل معنى إلا القليل النادر كأبى القاسم
ابن هانىء ومن جرى مجراه فإنه يقول أول مذهبته :

أصاحت فقالت وقع أجرد شيقهم وشامت فقالت لمع أبيض مخدّم
وما دُعرت إلا لجُرس حليها ولا رَمقت إلا بُرّي فى مخدّم
وليس تحت هذا كله إلا الفساد وخلاف المراد . ما الذى يفيدنا أن تكون
هذه المنسوب بها لبست حليها فتوهّمته بمد الإصاخة والرمق وقع فرس أولع

(١) ٢ : ٥ (٢) من مجموعة رسائل البناء ٢٥١ والاحاطة ٢ : ٢١٣ وجمنا

بين الروايتين (٣) السدة ١ : ١٨١

سيف ٠٠٠٠ وكانت عند أبي القاسم مع طبعه صنعة فإذا أخذ في الخلاوة والريّة وعمل بطبعه وعلى سجيته أشبه الناس ودخل في جملة الفضلاء . وإذا تكلف الفخامة وسلك طريق الصنعة أضرّ بنفسه وأتعب سامع شعره . ويقع له من الكلام المصنوع والمطبوع في الاحياء أشياء جيدة . ثم ذكر له من كلى (١) القسبين بيتاً بيتاً ثم قال فهذا كله جيد وقد زاد فيه على البحرى الخ . فأنت تراه في حكمه غير مائل عن جادة الإنصاف ، ولا هائم على وجهه في الشطط والاعسف ، كآخرين يحملهم الحب أو البغض على حرمان المصيب واستحسان المخطئ .

الدعوة الإسلامية وشخصية العرب القومية

ان الدعوة الإسلامية التي دعا اليها النبي العربي الكريم يمكن ان تمد في الوقت ذاته مظهراً من مظاهر بروز شخصية الامة العربية في الكون ، وعاملاً في تجديد صلاتها مع الامم الاخرى على وجه لا يقاس قوة وسعة بما كان من هذه الصلات قبل الاسلام بعد دور قرة العرب وجاهليتهم

لقد طرأ على العرب في الجزيرة قبل الاسلام بيضة قرون شيء من الفترة . ضعفت فيها دولهم الجنية المنتظمة التي كانت على الاغلب جماع أمرهم وسطع عديم ومدّ الاحباش اليها أيديهم وما لبث ان حل نفوذ الفرس محل الاحباش فيها . ولم يكن المناذرة والفسانة ايعولوا دون ذلك ، لانهم لم يكتفوا وحدة عربية تنقاد اليهم بها العرب على اختلاف اقطارهم وقبائلهم . بل اند كاثواسيبنا في ازدياد نفار العرب وحرورهم واتساع شقة الخلاف بينهم . وكثرت بسبب ذلك ، وباسباب جاهلية اخرى ، الوقائع والحروب بين عرب الجزيرة مما هو معروف في التاريخ بأيام العرب يمينيين ومضريين ، ويمنيين فيما بينهم ، ومضريين فيما بينهم أيضاً

في مثل هذه الحالة التي أنهكت قوى العرب وشنت شملهم وفرقت وحدتهم وجعلت اخوة القبائل عداء وخصومة وحرباً ودماً ، وفي مثل هذه الفترة التي

(١) قال ابن درستويه في كتاب الكتاب (ص ٢١) أن كلا وكلثا يكتبان في حالة الاضافة الى المظهر والجر أو النصب بالياء فتكتب رأيت كلثى الرجلين ومردت بكلث الرجلين